



صورة المتكلم في أدب المغازي

The speaker image in the "adab al maghazi"

محمد زروق*

الجامعة التونسية-تونس zarrouk68@hotmail.com

تاريخ النشر:

2021-06-02

تاريخ القبول:

2021-04-06

تاريخ الإرسال:

2021-02-05

ملخص: الملخص يهتم هذا البحث باختبار تصوّر نعمل على إجرائه علة قديم النصوص، ويتمثل في دور المؤلف في بناء الخطاب السردى القديم، وقد عملنا على بيان أعوان السرد وإظهار أدوارهم نظرا في المتن وفي السند، وركزنا على مدونة محدودة هي كتاب الواقدي "المغازي"، ونظرنا في نماذج من هذه الأخبار، منها أدركنا تداخل الرؤية وتعقدها، بداية من رؤية الشخصية محور السرد، ومرورا برؤية الذوات الحاملة للخبر، وانتهاء برؤية المؤلف الجامع، الذي يُسند إليه تأليف هذه المغازي، وأقمنا البحث على مقدمة وعنصري دراسة، هما: صورة المتكلم في أدب المغازي، ومجالات الرؤية، وانتهينا بضبط نتائج البحث وما توصلنا إليه من أدوار جهات الحكاية.

كلمات مفتاحية: الكلمات المفتاحية: المغازي؛ الرؤية؛ الإدراك؛ المؤلف؛ السند؛ المتن؛ الراوي.

Abstract: This research is concerned with examining a perception that we are working on conducting the cause of ancient texts, which is represented by the role of the author in constructing the old narrative discourse. We have worked on clarifying the narration's assistants and showing their roles in the text and in the chain of transmission. From this news, some of which we realized the overlapping and complexity of the vision, starting with the vision of the character, the focus of the narration, passing through the vision of the subjects who bear the news, and ending with the vision of the comprehensive author, to whom the authorship of this metaphor

* المؤلف المرسل

is assigned. And fields of vision, and we ended by adjusting the search results and the roles we reached in terms of the story's visions.

Keywords: AL-MAGHAZI"; vision; perception; author; sanad; matn; narrator.

-مقدمة: نعمل في نظرنا في السرد العربي القديم على مراجعة جملة من المفاهيم السائدة في الدرس السردى النظري الحديث وذلك تساوقا مع المراجعات التي يجترحها أصحاب النظريات التلقظية والتداولية، ولعلّ اختيارنا لمراجعة مفهوم المتكلم ومجالات رؤيته، وصلاته بالواقع وبالخطاب، داخل في استنادنا إلى منطقتين رئيسين، المنطلق الأول يتمثل في اعتقادنا أنّ دراسة المتكلم تُشكّل الممسك الأساسي لكل الدراسة السردية، فهو العون (instanc) المحدّد لكل فضاء الخطاب السردى، وهو الواصل بين عالم المرجع وعالم التخيل، وهو أيضا المتشكّل في صورتين، صورة مرجعية، وصورة خطابية. أمّا المستند الثاني فهو خصوصية السرد العربي القديم في تشكّل عناصره وأمحاء صورة المؤلف الواحد الأوحد، وتضافر أصوات ورؤى متراكمة في إخراج الخطاب السردى في صورته التي بلغتنا، ذلك أنّ السرد العربي القديم قائم على آلية واضحة يتهرب فيها صاحب الكلام ممّا يقول فيردّه إلى جهات عدد، لا يتحمّل أيّا منها قيادة السرد ولا جهته، فهم براء منه، يُسنده دوما لاحقّ إلى سابق.

وعلى ذلك، فإنّنا من خلال نظرنا في الخبر الأدبي عبر أوجهه المتعدّدة ومضائيه المختلفة، وفي السرد الدينى متمثلا في الحديث النبويّ ومختلف تحولاته، في السرد الشعبيّ والسرد الصوفيّ، أدركنا صورة معقّدة للذات المتكلّمة ومختلف تشقّقاتها ومظاهرها، ومجالات رؤيتها. وهو الأمر الذي عملنا على بيانه في مجال سرديّ مميّز في الثقافة العربية وهو الكتابة في المغازي، رسدا لصورة الرسول محمد في غزواته¹، وهو الهدف المحدّد لهذا النمط من الكتابة، غير أنّ الذات المتكلّمة (وهي هنا ذات شديدة التعقّد) لا تقصر أمر الحديث في الغزوات، وإنّما تفتح السرد على إمكانات

رحبة، تعرضُ للأنساب وللسير الغيرية، وللتواريخ والمواقع الجغرافية، ولأخبار الرجال، وحوادث الرسول محمد وأقواله، وتُقيمُ بذلك رؤيةً متراكمة، فالرواة الناقلون والمؤلفون، الفاعلون وغير الفاعلين، لهم رؤية في القول المنقول عبر آلة السند، وهم أيضا يستدعون رؤى الشخصيات المروية وخاصة منهم رؤية الرسول محمد ومن صاحبه وزامنه.

ذاك جانبٌ من تعقّد الرؤية السردية في خطاب المغازي، ومن أجل ذلك فقد أثرنا أن نبحث في هذا الموضوع مقتصرين مبدئياً على مدونة واحدة، وآلة واحدة نعتقد أنّها القناة المدخل لفضاء السرد وهي الرؤية السردية، وحاولنا أن نعالج ذلك بترشيح عنصرين للدراسة:

- صورة المتكلم

- مجالات الرؤية

وتأتى هذا التقسيم من اعتقادنا أنّ الرؤية السردية هي المدخل الرئيس لإدراك عمق المعنى، بياناً لمنزلة الناظر وموقعه ممّا ينظر، وما يتحمّله من مواقف يُمكن أن تؤثر على بنية القول الذي يصدر عنه.

1- صورة المتكلم في أدب المغازي

يَعسرُ أن نجري مفاهيم البنيوية السردية في تأصيلها لمنزلة الراوي ومجالات رؤيته على السرد العربي القديم بمختلف أنواعه لأسبابٍ أهمّها، أنّا في السرد العربي القديم على وجه العموم لا نجد ذاتاً واحدة هي صاحبة التأليف، يُمكن منها أن نُجرّد ذاتاً ساردة تُحصّر في الخطاب فقط، ذلك أنّ هذا السرد يمرّ فعلاً بمراحل ممّا أسماه ستيفان ليدر بـ"إعادة الإنتاج المتكررة"، فنحن إزاء كثرةٍ من المنتجين تقتضي وفرةً من الرواة ومن الأصوات، فيخرج المضمون السرديّ منبثاً بذاك التراكم من الأصوات، يتلقّاه السارد المدير ويمتصّ تعدّده وتباين رؤاه ويُخرجه صوتاً واحداً ولفظاً واحداً. ولذلك فإنّ معالجةً خاصّة لأدوار المؤلفين والنقلّة في أدب الأخبار على تعدّد مجالاته أمرٌ أكيد

في ما دخلنا فيه من تركيزٍ على أعوان الإنتاج والإخراج والنقل، فتلك الذوات على اختلاف مواقعها ودرجات أدائها هي في الغالب الأعمّ ذوات إحاليّة ومرجعيّة، فمن الممكن "أن ننظر إلى المؤلّف من ناحية غير تلك التي نظر من خلالها القاضي وكليطو، والوجه في ذلك أنّ الأمر يتعلّق في هذا النطاق بهويّة المؤلّف في النصّ، ولا سيما في نصوص الأخبار ذات الصبغة المرجعيّة. فالمطلّع على المصوغ من الأخبار في كتب الأدب يدرك أنّ هذه الأخبار ذات طابع إحاليّ بيّن تكشف عنه طريقة الإسناد التي هي وسيلة لتحقيق الخبر، والإيهام بإمكان وقوعه كما يكشف عنه مضمون المتن"².

وبسبب تعقّد الرؤية السردية في مجموع كتب الأخبار إجمالاً وفي كتاب المغازي للواقدي تحديداً (ويُظهر هذا التعقّد في مقبل ما ندخل فيه من عناصر البحث)، فإنّا عملنا على الجمع بين الإنسان في وجوده العينيّ باعتبار أثره في ما يُنتج من خطاب، معجماً ولغة ورؤية، والراوي في تحقّقه التخيليّ المجرد ذاتاً تنمو وتكبر وترى وتحدّد مجالات رؤيتها داخل فضاء اللّغة، فاخترنا مدخلاً اعتقدنا أنّه يُوائم طبيعة الخطاب الذي تعاملنا معه، وهو ما رشّح له "آلان راباتال" نعت "الإنسان الراوي"³ جمعاً لحضور الذات المتحقّقة في التاريخ مع الذات الكائنة في الخطاب مع الوعي بمخاطر الانزلاق إلى المقاربات ما قبل البنيويّة، وبجعل الخطاب السرديّ داخلًا في مقام أنتجه، ومتحقّقًا عبر ذات كانت لها الرؤية، والرأي، ومن حيث هي مجالٌ انصرف إليه الرّواة- العدد، تقصّيًا وبيانًا، وأخضعوها للرؤية العينية والقلوبية.

وباعتماد هذه المقاربة يُمكن أن نوازن بين رأيين، كلاهما ظالم لطبيعة تخطيب الغزوة وبناء عناصرها وأبعادها ودلالاتها، بين من يعتبرها محض كتابة أدبيّة تخيلية، ومن يعتبرها كتابة توثيقية تاريخية، وعليه أيضًا يُمكن أن نوازن بين من يعتبر أسماء الإسناد محض تحييل وهي نُكَاة فقط يعتمدها واضع الخبر للإيهام بصدقته ما يقول،

ومن يعتبر هذه الأسماء حجةً في التأريخ ودقة التحري، وهي في حقيقة الأمر جامعة بين هذا وذاك، هي إحصائية مرجعية، ولها وجود في الواقع روايةً وترويةً وهي في الآن ذاته لا تتكلم بالضرورة. ورد في مقدمة كتاب المغازي، قولٌ يشف عن هذه الصلات الحاصلة بين رُواةٍ متحققين عينيّين، فقد أقر صاحب مقدمة كتاب المغازي أنّ الواقدي قد استقى أخباره من سابقين منهم من ذكرهم، ومنهم من لم يذكر، وهو أمرٌ مألوفٌ في أدب الأخبار، ذلك أنّ العقدة في أدب الأخبار أنّ روايةً رأساً من الرواة يتقبل شتات الأخبار ويُنصدها ويُنظمها ويُؤلف بينها، ويُوحدُ مُتفرِّقها ويُخرِّجها إخراجاً واحداً، "قدّم لنا الواقدي كتابه المغازي، الذي يُمثّل الصورة الأخيرة من مراحل تطوّر السيرة النبوية في القرنين الأوّل والثاني للهجرة. وهو لم يرو عن الزهري مباشرة ولكنّه اعتمد -في الأغلب- على الرواة الذين رَووا الأخبار عن الزهري، ومما يجدر ذكره أنّ الشخص الوحيد الذي لم يتعرّض الواقدي لذكره من بين تلامذة الزهري، هو ابن إسحاق. ولهذا السبب -أي عدم ذكر الواقدي له- وبسبب التشابه الكبير بين فقرات كتابة السيرة لابن إسحاق وكتاب المغازي للواقدي، زعم هوروفتس وفلهوزن أنّ الواقدي قد سطا على ابن إسحاق دون عزو إليه، بل إنّ هوروفتس قد ذهب في زعمه إلى أبعد من هذا، فهو يرى أنّ لفظة "قالوا" في مغازي الواقدي بدلا من الإسناد تدلّ على ذلك السطو"⁴.

وهو أمرٌ في حقيقته لا يعود إلى السطو أو الاستلاب أو الإغارة وإنّما هو موصولٌ بمدى تصرّف الرواية الرأس في قنوات الإسناد ومواضعه، إذ له أن يجمع الأصوات أو أن يُفردها، وله أن يصل أسماء الإسناد أو أن يقطعها ويختزلها، وذاك من أدوار الرواية التي يقوم بها جامع الروايات، الذي يُوحّد المختلف ويؤلف المؤتلف.

محمّد الواقدي هو أهمّ من كتب في موضوع المغازي، حيث جعل الرسول محمّد في مغازيه بؤرة للسرد، واستلهم ذلك من روايات سابقة وشهادات معانين، وحكّم آلة الخبر في تفصيل الروايات أو ردّها، وفي النظر في الرواة، فلم يكن محض ناقل، وإنّما

كان ناقلا ناقدا، "إنّ مجموع كتابات الواقدي، المكوّنة من كتاب سلمٍ تماما وهو كتاب المغازي، من شذرات عديدة ترد في أعمال الآخرين، ولاسيما ابن سعد والطبري، تُظهِرُ أنّه كان أشدَّ اختصاصا في مجاله التاريخي من ابن اسحق. كان بالدرجة الأولى مؤرخا لمحمد وللقرن الأوّل أو ما يُقاربه من التقويم الهجري، ولكنّه إذ يؤرّخ للجماعة الإسلامية الأولى تزرع مؤلفاته بالأسماء والتواريخ وكأنّ الجماعة بأسرها، أكابرها وأصاغرها، تجد نفسها محفوظة في صفحاته. ثمّ إنّ الواقدي يُخضع كثيرا من هذه الأسماء والحوادث للتدقيق والتحليل المقارن بحيث تدبّ الحياة في تلك الجماعة وتاريخها. سمتان رئيسيتان من سمات منهجه تحتاجان إلى الإبراز: الأولى هي استعماله مبدأ الإجماع في تثبيت حقيقة وقوع الحوادث، والثانية هي انهماكه في تأريخ الحوادث وتحديد تسلسلها الزمني في ما يبدو أنّه محاولة لجعل تاريخه أكثر انتظاما وأسهل تناولا لجمهور العلماء وأصحاب المناصب الرسميّة"⁵

قنوات نقل الأخبار تُشكّل مسألة معقّدة ومأثى تعقّدها أنّها تُراوح بين النقل الحقيقي والوهمي، هي أسماء يستند إليها الراوية الجامع، بعضها حقيقي ومرجعي وبعضها الآخر من اختراع رُواة متراكمين في بناء الإسناد، ولكن يبقى الراوية الجامع هو العينُ الناضرة في هذه الروايات والصوتُ الغالب، فالواقدي، وهو مثال الراوية الجامع، بعد عرضه لقناة طويلة من حملة الأخبار، ورؤوس الرواية، يقول: "فكلُّ قد حدّثني من هذا بطائفة، وبعضهم أوعى لحديثه من بعض، وغيرهم قد حدّثني أيضا، فكتبتُ كلّ الذي حدّثوني، قالوا: قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأوّل، ويُقال لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوّل، والثابت لاثنتي عشرة".⁶

تتكرّر نفس العبارة من ترشيح بعض الرواة، وبيان تدخّل الراوية المنتهية إليه الروايات ليصوغها في شكل واحد وبناء جامع، "حدّثني محمد بن عبد الله، وعبد الله بن

جعفر، ومحمد بن صالح، ومحمد بن يحيى بن سهل، وابن أبي حبيبة، ومعمر بن راشد، في رجال مَمَّنْ لم أَسْمَهُم، فكلُّ قد حدَّثني ببعض الحديث، وبعض القوم كان أوعى له من بعض، وقد جمعت كلَّ الذي حدَّثوني، قالوا: "7. إِنَّ استعمال الراوية الأخير لعبارة "وبعضهم أوعى من بعض"، هو دليل على قدرة هذا الراوية على تحكيم الروايات والرواة، فهي المفتاح السردي الدالّ على تفاوت الأخبار الواصلة إلى الراوية، والمدخل الذي يَنكأُ إليه الواقدي لترشيح بعض الروايات ولجمع مختلفها في صوت واحد، هو صوته.

هنالك ظاهرة متكررة في أسانيد "كتاب المغازي"، تتمثل في أنّ محدّد الواقدي هو صاحب الصياغة، وصاحب الرؤية، فهو ليس محض ناسخ لأخبار بلغته، وإنّما هو ضابط خيط السرد، منتقي الأحداث، ومغلّب الروايات والرواة، هو متلقي الروايات، الناظر فيها، الناظر فيها، منتقيها، ومتخير ما يُسائر سرده، هو كائنٌ كاتبٌ يَجْمَعُ من الأخبار ما يُوائم ويلائم من يدخل في مجال اعتقاده، فهو يُراعي آفاق تقبّل يَعْرِفُ حدودها ومقاماتها، فالإنسانُ الراوي في نهاية المطاف -وفق تصوّر راباتال- هو "ذاتٌ تحكي أحداثاً لِمُتَقَبِّلٍ ما"⁸.

في الكتابة السردية العربية القديمة هنالك هذا الفارق الفعلي بين الرائي والراوي، في المعادلة الجينية، في حدّه للمحمول السرديّ والمنطوق السرديّ، في الفارق بين العين واللّسان، ذلك أنّ "الخبر ليس كالمعاينة"، والمعاينة في هذا المقام فرض عين، وفي خطاب الخبر لا يتركز على المُعَايِن، الشاهد، وإنّما المُعْتَبَر هو صاحب الصوت الأغلب، رأس الرواية، جامعُ المَرثِيَّات والمحمولات القولية، ومُحَقِّقها، ومُثَبِّتُها في صيغتها النهائية المُتداوَلة بين الرواة، هو الراوية العالم، القادر على تحصيل مختلف من الروايات للواقعة الواحدة، مثلاً هو الأمر في ما يرويه الزبير بن بكار على سبيل المثال في ما أُسْنِدَ إليه من مصنّفات، أو في ما يُسْنَدُ إليه من أخبار في كتاب الأغاني،

وهو الأمر الذي يجري على أبي عبيدة خاصة في رواية أخبار الأيام، وهي وضعيّة الواقدي في باب المغازي التي يرويها.

إنّ خطاب المغازي يتقيد بشرطين ليتحقّق، ويتحدّد، الشرط الأول أنّه متّخذ ذاتا هي موضوع الرؤية ومجالها، ومنها يُمكن التوسّع في استدعاء ذوات أخرى، هي ذات الرسول محمّد بكلّ ما يُمكن أن تحمله معها من مرجعيّة قدسيّة تجعل الكتابة في الأخبار أقرب إلى مجال الحديث النبويّ منها إلى مجال الكتابة الأخباريّة الأدبيّة العامّة، والشرط الثاني أنّ الذات المبارة لا تُروى كلّ وقائعها وحوادثها، وإنّما تُرشد من أحداثها الغزوات والحروب التي خاضتها، وتنفّث الأحداث صدورا عن هذا الموتيف الرئيس. وفي هذا المجال يظهر التمايز الجليّ بين الراوي والرائي، بين المُعين للأحداث ومحوّلها إلى أقوال، بين ناظرٍ في الوقائع وناظر في الروايات. فهل أنّ الواقدي هو الذات المتكلّمة التي تحوّلت من وضع التقبّل والحمل والنقل إلى وضع التصويغ والتصرّف في المنقول جمعا وتأليفا وحكما؟ أو هو صاحب الأخبار يبتكرها، ويضعها من محض خياله؟ أو هو الناقل الأمين، لا دور له سوى حمل الأخبار يؤدّيها دون صيرفة منه، خاصّة أنّها أخبار تخصّ الرسول وما له من منزلة في معتقد المؤمنين به؟

في إسناد الكتاب ومختلف رواياته، تُظهر الذات المتكلّمة سلسلة من السند تضمّ قائمة اسميّة لرواة حملوا رواية الواقدي إلى أن أُخرجت على هيئتها الأخيرة، وسلسلة من الرواة الذين سبقوا الواقدي، وحملوا الرواية من مصادرها المُنشئة إلى أن بلغت الواقدي، فلا يظهر في خطاب المغازي السردية متكلم واحد، وإنّما هي أصوات متراكمة من المتكلّمين والمتلفّظين، تُجمّع في صياغة واحدة، يُخرجها المُخرج الأخير، الذي تغيب صفته ويعسر أن تُجري عليه ما ينعته آلان راباتال بالإنسان الراوي⁹، ذلك أنّنا لسنا إزاء طرف واحد منشئ للخطاب -وهي السمة المهيمنة على أغلب مصنّفات النثر العربي-

، فالواقدي وهو الذات التي تُسند إليها أخبار المغازي، ليس العون الأخير في قائمة الإسناد، فهناك من أخذ عنه وأوصل أخباره، وهو أيضا ليس بالعون الأول، الذي تصدر عنه الأخبار ليكون مُجترَحها ومبتكرها ومعينها، وإنما هو واقع في موقع وسط، فلم يُسند إليه القول؟ ومنه، تُسند إليه الإدراكات وتحديد الجهات؟ ولم يغلب صوته على الأصوات الشاهدة والناقلة، الفاعلة والحاملة؟

إننا نختزل هذه الأصوات في صوت الواقدي، على اجتهدنا في بيان الرؤى الغائبة أو المغيبة، فالواقدي هو المتكلم الأساس في هذه الأخبار، وصوته هو صوت الصائغ النهائي لأخبار بلغته مُقطَّعة الأوصال أو كاملة الصفات، متناقضة المعاني أو موحدة في معناها. لا ريب أن الأمر في صفة الذات المتكلمة وإمكان تشققها ودورها في تأدية خطاب المغازي يحتاج نظرا ودراسة وتعمقا، فرغم بناء الإسناد بشكل دقيق إلا أنه غالبا ما ينتهي إلى مَنْ لا يسميهم، أو إلى اعتماد محتوى من الخبر وترك آخر، وبذلك يُمكن أن ندرك ببسر لِمَ أسندت الأقوال إلى الواقدي دون سالفه من الرواة أو لاحقيه، فهو الحلقة العالمة في الرواية التي اختارت موضوعها "المغازي" وجمعت أخباره، وانتقت رواته ورواياته. فما قبل الواقدي لم يكن هنالك موضوع المغازي، بل كانت سيرة الرسول محمد، وما بعده صار النقلة يتناقلون كتابه، المحمول شفويا، ولذلك يُمكن أن نسميه الرواية الرأس. يبدو الواقدي ذاتا متكلمة عارفة، يتلقى المادة الأخبارية التي تخص موضوعه، ويختار منها ما يوافق مساره ورؤيته ورأيه، ويعيد صوغها من جديد، إذ أن كثافة من الأصوات تبلغه، فيجمعها ويخرجها صوتا واحدا، وبذلك يتخذ من الرواية فقط موقع الرأس، أما الرؤية فتتوزع بين جهات عدد، تأخذ من الرأس المادة الأخبارية وتصوغها وفقا لرواها.

الرواية الرأس هو الرواية الذي يمتص الروايات السابقة، ويخرجها صياغة واحدة، يؤلف بين متفرقاتها، ويختار من متعددها، وينشئ من المتعدد المتنوع نصا واحدا، يُنسب

إليه ويتلقفه الرواة منه لروايته مُسنِّداً إليه، وكذا كان وضع الواقدي، الإنسان، والراوي، فهو يعتمد على أسانيد تتفرَّق من بعده، وأسماء تختلف رؤاها ورواياتها وهو جامعها، فالخطابُ خطابه وإن حمله من بُعدٍ إنَّتاجه رُواةٌ لاحقون تداولوه شفويًا وكتابيًا.

تتراكم الأصوات وتتراكب، على الصورة التي يكون عليها الخبر، تعدّداً في إثبات الحَمَلَة والنَقْلَة والرؤوس من الرواية، غير أنَّ المقام، مقام المغازي لا يقبل تعدّد الأصوات نُفْرَةً وتباينا وتضاربا في نقل الأخبار، ذلك أنَّ الرسول ببُعده القدسي هو موضوع المغازي ومدارها، فالمغازي نمط من الكتابة الداخلة في تسريد الغزوات والحروب، ليس على وجه الإطلاق، وإنَّما استقرَّ هذا الجنس السردِي للخوض في رواية حوادث حروب الرسول وصحابته تحديداً، ولذلك فهو أدب داخلٌ في مجالات عديدة، أهمّها السيرة النبويّة، وقد عدّه البعض نمطا سِيرِيًّا، لأنّه يعرض لحياة الرسول محمّد في جزء منها، وهي الغزوات التي قام بها في نشره لرسالته.

شكلياً يتوزّع الأداء الروائي في خطاب المغازي على هيئة تَوَزُّعه في الخطاب الأخباريِّ عامّة، بمعنى وجود رأس في الرواية ليس بالضرورة أن يكون محلّه من الإسناد الأوّل أو الأخير، وذلك مثار أسئلة بالنسبة إلينا، ومن نَقْلَة تخبو أصواتهم، ومن رُواة مبرزين، يُرجع إليهم الخبر، ومن تلاميذ مدوّنين، يأخذون عن الرأس، الغالبة رؤيته، (وهو الواقدي في مجال دراستنا)، وهي خطاطة متواترة في أدب الأخبار، فيها ينقلّ اللاحق عن سابق.

ويمكن أن نُبيّن ذلك باتّخاذ بعض الأمثلة المتكرّرة صياغتها في أسانيد كتاب المغازي:

م1- في غزوة القضية، ورد في كتاب المغازي: "حدّثني محمّد بن عبد الله، عن الزُّهريّ، وابن أبي حَبِيبة، عن داود بن الحُصَيْن، ومعاذ بن محمّد، عن محمّد بن يحيى

بن حُباب، وعبد الله بن جعفر، وابن أبي سبرة، وأبو معشر، فكلٌّ قد حدَّثني بطائفة من هذا الحديث، وغيرهم ممَّن لم أَسْمَ، فكتبتُ كلَّ الذي حدَّثوني قالوا: .."

تتولَّد عن هذا الشاهد مسألتان هامتان متكرَّرتان في مظهره وصيغته، المسألة الأولى وجود راويين مصدرين اعتمدهما الواقدي، وهما الزهري وابن أبي حبيبة، وقد نقلنا الخبر عن راويين، هما من الرواة النَّقْلَة، وهما داود بن الحصين، ومعاذ بن محمد، اللَّذَان نقلًا بدورهما الخبر عن ثلاثة رُواة هم منتهى الإسناد، وهم عبد الله بن جعفر ومحمد بن يحيى بن حُباب وابن أبي سبرة، غير أنَّ الإسناد لا ينتهي عند هذا الحدِّ من التدقيق، وإنَّما ينفُتَح على أسماء أخرى لا تُسمَّى، قد يكون لحقها النسيان، أو هي لا ترقى لتكون مع حلقات الإسناد العلمي. (انظر ناصر الدين الأسد)

والمسألة الثانية، خاصَّة بدور المؤلِّف¹⁰، فهو قائم على جمع أجزاء الخبر من جهةٍ وإحداث تواصل بينها، "فكلَّ حدَّثني بطائفة من هذا الحديث"، فالحديث لم يبلغه تامًّا مسترسلًا، وإنَّما بلغته نتف متفرِّقة عمل المؤلِّف على إنجاز تتابعها وتواصلها، وبالرغم من هذا التوزُّع وإمكان الاختلاف بين الروايات، فهو ينتهي إلى تدوينها وجمع أصواتهم المتفرِّقة في صوت واحد يُجرى فيه فعل القول "قالوا"، وهم في حقيقة الأمر لم يقولوا، وإنَّما هو القائل.

المثال 2: في حديث الواقدي عن غزوة أحد، يقول: "حدَّثنا محمد بن شجاع قال: حدَّثنا محمد بن عمر الواقدي قال: حدَّثنا محمد بن عبد الله بن مسلم، وموسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث، وعبد الله بن جعفر، وابن أبي سبرة، ومحمد بن صالح بن دينار، ومعاذ بن محمد، وابن أبي حبيبة، ومحمد بن يحيى بن سهل بن أبي حنمة، وعبد الرحمن بن عبد العزيز، ويحيى بن عبد الله بن أبي قتادة، ويونس بن محمد الظفري، ومَعْمَر بن راشد، وعبد الرحمن بن أبي الزناد، وأبو معشر، في رجالٍ لم أَسْمَ، فكلٌّ قد حدَّثني بطائفة من هذا الحديث، وبعض القوم كان أوعى له من بعض، وقد جمعت كلَّ

الذي حدّثوني، قالوا: "لَمَّا رَجَعَ مِنْ حَضَرَ بَدْرًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى مَكَّةَ، وَالْعِيرِ الَّتِي قَدِمَ بِهَا أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ مِنَ الشَّامِ مَوْقُوفَةً فِي دَارِ النَّدْوَةِ -وَكَذَلِكَ كَانُوا يَصْنَعُونَ- فَلَمْ يُحَرِّكْهَا أَبُو سَفْيَانَ وَلَمْ يُفَرِّقْهَا لَغَيْبَةِ أَهْلِ الْعِيرِ.." ¹¹.

فلنا أن ننتبه إلى وجود مُخرج للأخبار، يبدو هو حاملها ومحوّلها من مقام الشفويّة إلى مقام الكتابة، وهو محمّد بن شجاع، الذي يُسند القول إلى صاحب التّأليف في المغازي، وهو محمّد الواقدي، الذي يُسند بدوره المنقول الأخباري إلى عدد كبير من المصادر المجتمعة في مستوى من الرواية واحد، فيهم المذكور اسما، وفيهم من لم يُسم، غير أنّ الإسناد يُظهر أنّ الأخبار المنقولة عن المصدر، يقع فيها التداخل والزيادة والنقصان، فهي ليست داخلة في المقام التقديسي لفظا ومعنى، ولذلك فإنّ الواقدي يخرج عن النظام السائد في التّأليف الخبري نسبيا، ليضطلع هو بدور التّأليف وبناء الحكاية، حكاية الغزوة، صدورا عن مادّة حديثة متورّعة عند رواة معلومين أو غير معلومين. فنتشكّل الرؤية في كتاب المغازي عموما على هيئة الخطاطة التالية:

محمّد بن شجاع (آخر اسم وصله الخبر، وهو شخصيّة تاريخيّة، وهو أحد الأعلام "وكان صاحب تعبّد وتهجّد وتلاوة- سير أعلام النبلاء، ج12)

محمد الواقدي

محمّد بن عبد الله بن مسلم - موسى بن محمّد بن إبراهيم بن الحارث - عبد الله بن جعفر - ابن أبي سبرة - محمّد بن صالح بن دينار - معاذ بن محمّد - ابن أبي حبيبة - محمّد بن يحيى بن سهل بن أبي حثمة - عبد الرحمن بن عبد العزيز - يحيى بن عبد الله بن أبي قتادة - يونس بن محمّد الظفري - معمر بن راشد - عبد الرحمن بن أبي الزناد - أبو معشر - رجال لم أَسْم.

تُظهر الخطاطة ما سلف أن ذكرناه من تعقّد مسألة الرؤية أولاً، ومن الارتكاز على ذات خطابية ومرجعية في نفس الوقت وهي محمد الواقدي، الذي استقى أخباره من عدد من الأصوات منها ما سمّاها ومنها من لم يُسمّها. ويتكرّر جمع هذه الأصوات في فعل "قالوا"، والحال أن الواقدي هو القائل كما ذكرنا سابقاً. كما نتبيّن التشكيل المعقّد في توزيع الذوات الرواية الفاعلة في تصويغ خطاب المغازي، بين أصوات تُقصر فعلها على النقل، محض النقل، وأصوات لها أثر ورؤية في ما تنقل، وهي سمة غالبية على أدب الأخبار الذي تدخل المغازي في نطاقه. لا يصدر الرواة عن مادّة حديثة حاصلة بالضرورة في أغلب مستويات تحقّق الخطاب بل إن الرؤية تبنّر القول، تنظر في الأقوال التي تتداول على وجه الحقيقة لا على وجه المجاز.

م3- "وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي على رجليه، يُسوي تلك الصفوف، ويُويّ أصحابه للقتال، يقول: تقدّم يا فلان! وتأخّر يا فلان! حتى إنّه ليرى منكب الرجل خارجاً فيؤخّره، فهو يُقوّمهم كأنّما يُقوّم بهم القداح، حتّى إذا استوت الصفوف سأل: من يحمل لواء المشركين؟ قيل: بنو عبد الدار. قال: نحن أحقّ بالوفاء منهم. أين مصعب بن عمير؟ قال: ها أنا ذا! قال: خذ اللواء. فأخذه مصعب بن عمير، فتقدّم به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم"¹²

في هذا المثال ونظائره كُثر نتبيّن عدداً من المستويات في الرؤية والرواية، إذ تشبّك الأصوات والإدراكات بتبدّل المُبتَرّين، فهناك صوتٌ إطارٌ له منزلة ممّا يروي، يُدرك مكانة الرسول ويؤمن به ويختار من الصفات الواصفة ما به يُقوي المعنى في الدلالة على حرص الرسول على تنظيم أمور الحرب والتخطيط لها، من ذلك ما ذكره من نعوت وأوصاف، "الرسول صلى الله عليه وسلم"، "لواء المشركين"، "فهو يُقوّمهم كأنّما يُقوّم بهم القداح"، وهو خطابٌ ذاتي، تظهر فيه صورة المتكلّم (المتراكم)، المتوافق في الرؤية والرأي¹³، هي ذات واحدة في التصرّ والاعتقاد وإن اختلفت طرق التعبير. فنحن إزاء

ثلاثة أعوان مسؤولة عن إنتاج السرد، يكون المتكلم الرئيس ضامنًا ومحدّدًا، الراوي الشاهد المُعَين، والراوي الرأس الذي يختزل أصواتا ورؤى متراكمة، والرسول الذي تُثَقَّل أقواله في معرض سرد الواقعة، تُثَقَّل أقوال الرسول، وهو المُبَار والجهة المقصودة بالرؤية والرواية، فرؤيتان تغلبان في هذا المجال رؤية الراوي (في صيغته الجمعيّة) يصف فعل الرسول ورؤية الشخصية المُبَارَة (الرسول) التي تنطق، وتَسأل وتقرّر، وهو أمرٌ معهود في تخطيط السرد وتوزيع أدوار الرؤية، وتقليب منابقتها ومنابعها، يقول محمد نجيب العامي "الراوي والشخصيّة هما محورا الرؤية العاديين. وقد يختار الراوي أن يكون راويا رائيا. وقد يُفَوِّض أمر الرؤية إلى الشخصية، وقد يُروّح بين رؤيته ورؤية الشخصية"¹⁴. وعلى ذلك، فإنّ الراوي المُنسَق، الجامع، يستدعي رؤى ويتبنّى مواقف يؤمن بها ويُبَيِّنُها، ومن ذلك أن يتحمّل رؤية الرسول محمّد (حتّى إنّه ليرى)، فيرى ما يراه، ويُبَيِّنُ ما يُبَيِّنُه، يصيح الراوي حاملا لرؤية الشخصية، ويسمّ المُعَدين للرسول في دعوته بالمشرّكين، ولذلك فإنّ ما يُورده الراوي الجامع يُطهرُ موقفه ورأيه من تحمّل موقف يجعله يتخذ زاوية نظر مُناصرة للرسول محمّد مسايرة له، وإن استعمل رؤى متراكمة، فموقفه جليّ، في ما يُجْريه من صفات ونعوت، وما يُعمله من رؤى تُبين أنّه يروي الأخبار وقد تحيّر لجهة بعينها، هي جهة الرسول محمد.

م4- وصف الراوي الحاضر المُعَين، نقل الحال، ونقل القول، وذلك يظهر في المثال التالي "وكان قُزَمان من المنافقين، وكان قد تخلف على أحد، فلما أصبح عبّره نساء بني ظَفَر فقلن: يا قُزَمان، قد خرج الرجالُ وبقيت! يا قُزَمان، ألا تستحي ممّا صنعت؟ ما أنت إلا امرأة، خرج قومك فبقيت في الدار! فأحفظْنه، فدخل بيته فأخرج قوسه وجُعِبَتْه وسيفه وكان يُعرَف بالشجاعة-فخرج يعدو حتّى انتهى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يُسوّي صفوف المسلمين، فجاء من خلف الصفوف حتّى انتهى إلى الصفّ الأوّل فكان فيه. وكان أوّل من رمى بسهم من المسلمين. فجعل يُرسل نبلا كأنّها

الرماح. وإِنَّه لَيَكِيْتُ كَتَيْتَ الجمل. ثُمَّ صارَ إلى السيف ففعل الأفاعيل، حتَّى إذا كان آخر ذلك قتل نفسه. وكان رسول الله إذا ذكره قال: من أهل النار. فلما انكشف المسلمون كسر جَفْن سيفه، وجعل يقول: الموت أحسن من الفرار! يا آل أوس، قاتلوا على الأحساب واصنعوا مثل ما أصنع! قال: فيدخل بالسيف وسط المشركين حتَّى يُقال قد قتل، ثُمَّ يطلع ويقول: أنا الغلام الظفري! حتَّى قتل منهم سبعة، وأصابته الجراحة وكثرت به فوق، فمرَّ به قتادة بن النعمان، فقال: أبا الغيداق! قال له قُزَمان: يا لَبِيكَ! قال هنيئاً لك الشهادة! قال قُزَمان: إني والله يا أبا عمرو ما قاتلت على دين، وما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا حتَّى تطأ سعفنا. فذكر للنبي صَلَّى الله عليه وسلَّم جراحته، فقال: من أهل النار¹⁵

نُدرِك من الشاهد نمطا في سياسة الرؤية بالجنوح إلى وصف الراوي الحاضر المُعَين، مع قُدرة هذا الراوي المُشاهد للأحداث على نقل الحال والقول. يُحدِّد الراوي أَنَّ قُزَمان شجاعٌ وتلك صفة أسندها له الراوي، حدَّده من خلالها، فقُزَمان شخصيَّة في هذه الغزوة مِبَّارة، يُنظر فيها، تتحدَّد بأمرين، الأول الشجاعة والثانية النفاق، والنفاق يعني إظهار عكس ما تُبطنه الشخصيَّة، وعلى ذلك فإنَّ الشخصيَّة وإن دخلت في حرب مع الرسول وبذلت ما بذلت من حياتها، في الدفاع عته تظلَّ كافرة، خارجة عن دائرة الإسلام، لم تخلص له، فعدم خروجها بدءا في غزوة أحد كان عن قناعة، وخروجها ثانيا بعد حَتِّ النساء له، كان بدافع قبليّ صرف، "إني والله يا أبا عمرو ما قاتلت على دين، وما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا حتَّى تطأ سعفنا". هنالك عديد الملاحظات في هذا النصّ، منها أَنَّ الراوي المُعَين يُظهر ويظهر موقفه واتِّجاهه، وهواه، فهو أولا قد بارَّ شخصيَّة قُزَمان، وجعله بطلا لا يُشَقَّ له سبيل، ثُمَّ ثانيا أخرجته من دائرة الإسلام.

م5- "ثُمَّ حَمَلَهُ كِلَابُ بْنُ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ. فَقَتَلَهُ الزَّيْبِرُ بْنُ الْعَوَامِ، ثُمَّ حَمَلَهُ الْجَلَّاسُ بْنُ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، فَقَتَلَهُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، ثُمَّ حَمَلَهُ أَرْطَاةُ بْنُ شُرْحَبِيلَ، فَقَتَلَهُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ حَمَلَهُ شُرَيْحُ بْنُ قَارِظٍ، فَلَسْنَا نَدْرِي مَنْ قَتَلَهُ، ثُمَّ حَمَلَهُ صُؤَابُ غَلَامِهِمْ، فَاخْتُلِفَ فِي قَتْلِهِ، فَقَائِلُ قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَقَائِلُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَائِلُ قَزْمَانُ، وَكَانَ أُثْبِتُهُمْ عِنْدَنَا قَزْمَانُ"¹⁶.

يُظْهِرُ فِي هَذَا الشَّاهِدِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَايُنُ، الشَّاهِدُ عَلَى الْوَقَائِعِ، يَرُوبِهَا بِثَبَاتٍ مَا يَبْدُو لَهُ يَقِينًا، وَبَارْتِيَابٍ مَا يَبْدُو لَهُ مَظْنُونًا فِيهِ، يَصِفُ الْفِعْلَ وَفَاعِلَهُ، وَيُسَمِّي الْحَامِلَ وَالْمَحْمُولَ، وَيَقْصِرُ شَهَادَتَهُ عَلَى الْفِعْلِ دُونَ الْحَالِ، وَلَكِنَّهُ فِي آخِرِ الْخَبَرِ يُبْدِي شَكًا فِي إِسْنَادِ قَتْلِ شُرَيْحِ بْنِ قَارِظٍ الَّذِي يُجْهَلُ قَاتِلُهُ دُونَ تَرْجِيحِ "فَلَسْنَا نَعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ"، وَفِي مَقْتَلِ الْغَلَامِ صُؤَابِ، الَّذِي اخْتُلِفَ فِي صَاحِبِ الْفِعْلِ، وَيُرْشَّحُ الْمُتَكَلِّمُ جُمْلَةً مِنَ الْأَسْمَاءِ دُونَ الْقَطْعِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا.

فَالْمُعَايِنَةُ وَالشَّهَادَةُ تُشَكِّلُ مَسْتَوًى هَامًا مِنْ مَسْتَوِيَّاتِ تَحْقِيقِ خُطَابِ الْمَغَازِي، يَحْضُرُ الرَّاوِي لِيَرَى، أَوْ هُوَ يَسْتَدْعِي مَنْ يَرَى¹⁷، وَإِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ يَحْتَاجُ الْمُتَكَلِّمُ إِلَى دَعْمِ شَهَادَتِهِ وَرُؤْيَيْهِ بِخُطَابِ مَنْقُولٍ عَنِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ مَسْتَوًى آخِرٌ يُلْجَأُ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُ لِنَتَبِيتِ الْقَوْلِ وَإِثْرَاءِ الْخُطَابِ بِصَوْتٍ لَا يَقْبَلُ الْمَجَادِلَةَ.

وَفِي وَجْهِ آخِرٍ يَبْدُو الرَّاوِي الْجَامِعَ عَلِيمًا، مُدْرِكًا لِمَا تُعْلِنُهُ الشَّخْصِيَّاتِ، وَمَا تُضْمِرُهُ، يُدْرِكُ أُمَانِيَّهَا وَأَحَاسِيْسَهَا، وَأَفْعَالَهَا الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ. وَلَقَدْ أَبَانَ مُحَمَّدُ الْقَاضِي فِي غَيْرِ هَذَا الْمَسَارِ، عِنْدَ دِرَاسَتِهِ لِأَيَّامِ الْعَرَبِ قُدْرَةَ الرَّاوِي الْجَامِعِ عَلَى تَفْضِيلِ رَوَايَةٍ مِنْ أُخْرَى، وَهِيَ الظَّاهِرَةُ الَّتِي يَسْمُهَا بِـ"الْبَدَائِلِ السَّرْدِيَّةِ" "وَنَعْنِي بِهَا تِلْكَ الْحَالَاتِ الَّتِي تَلْتَقِي فِيهَا رَوَايَتَانِ فِي الْجُزْءِ الْأَكْبَرِ مِنْهُمَا، إِلَّا أَنَّهُمَا تَفْتَرِقَانِ فِي بَعْضِ التَّدْقِيقَاتِ. عَلَى

أنّ هذه الفويرقات لا تكون في مواضع رئيسية يترتّب عليها اختلاف في المسار العام لليوم" 18

نخلص إلى أنّ صورة المُتكلّم في أدب المغازي مُعقّدة، وأنّه يصعب أن نُسنِد الرؤية إلى جهة واحدة، وإنّما هو تراكمٌ من الأصوات والرؤى، تتشابك وتتداخل، ولكنّ جهةً واحدة هي القادرة على امتصاص هذا المختلف رؤيةً ولفظاً، وهي الرواية الرّأس، الذي يُمثّل الحلقة الكبرى في الرواية، يجمع هذا المختلف ويؤلف بينه ويُخرجه صوتاً واحداً ولفظاً واحداً ورؤيةً واحدة، هي رؤية لا تُورّخ، ولا تطلب الحقيقة التاريخية بقدر ما تعبّر عن قدرة شخصيّة محمد في إدارة الحروب، واستطاعة صحابته الذي حقّق بهم نصره.

2- مجالات الرؤية السردية: لا تجول عين السارد اعتباطاً، لا عين الشاهد، ولا عين المؤلّف، لا رؤية رائّي الأقوال ولا رؤية رائّي الأفعال، وإنّما هو خطٌّ من السرد، محدّد جهاته، بيّنّة مقاصده، في رصد عالمي الشرّ والخير، الرسول محمّد ومَنْ جَانِبِهِ ونصره وانتصر به، ويدخل في خانته رُواة المغازي، والأعداء، أعداء الإسلام، الذين قاوموه أو قاومهم، والأنصار الذين وقفوا مع الرسول محمد في غزواته، هي أخبار كلّ ما سلف أن ذكرنا تنشدّ إلى موضوع معلوم لا تخرج عنه، وإن توسّعت في نطاقه. يدخل فيها المفارق للواقع، والقابل للوقوع، غير أنّنا نشير في هذا المقام أنّ أخبار الواقدي في المغازي شكّلت مادّة تاريخيّة اعتمدها المؤرّخون المعاصرون، وخاصّة منهم هشام جعيط، الذي يذهب إلى أنّ الواقدي من الرواة الذين يتحرّون الحقيقة، واعتمد أخباره في عددٍ من المواقف، وإن أثبت أسطورية بعض ما يُورده من أخبار¹⁹. فهو يجمع بين رأيين في شأن ما يرويه الواقدي، رأي أول يتمثّل في أنّه من الرواة الذين يبحثون عن الحقيقة، ولكنّ الحقيقة في مجال الرواية هي صحّة السند، ورأي ثان يرى أنّه في تدوينه للحقائق، دون أساطير عديدة في المرحلة المحمّديّة ابتكرها الرواة وجعلوها

هالة للنبي، "وفي الفترة المكية قسط كبير من الخيال ومن القصص -كما يذهب إلى ذلك الدوري- ومن الخرافة ومن ذكر للمعجزات، وهذا ما يُمكن لنا نحن المُحدّثين طرحه جانبا. بل إنّ المعجزات تتكاثر بين ابن اسحاق والواقدي"²⁰، فمن ذلك مثلا ما ورد في تفسير أسطوريّ لظاهرة ريحٍ أصابت القوم، والتداخل البين بين الواقع (ظاهرة الريح) والأسطوري، في تفسير الظاهرة بموت منافق من أشرس المنافقين، ولن تهدأ الريح إلى بعد دفنه، "فنزل من الغد ماء يُقال له بقعاء فوق النَّقيع، وسرّح الناس ظَهرهم، فأخذتهم ريح شديدة حتّى أشفق الناسُ منها، وسألوا عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وخافوا أن يكون عُيْنَةُ بن حصن خالف إلى المدينة، وقالوا: لم تهجّ هذه الريح إلّا من حَدَث! وإنّما بالمدينة الذاري والصبيان. وكانت لبين النبي صلّى الله عليه وسلّم وبين عُيْنَةَ مدّة، فكان ذلك حين انقضائها، فدخلهم أشدّ الخوف، فبلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خوفُهم، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: ليس عليكم بأسٌ منها. ما بالمدينة من نَقَبٍ إلّا عليه مَلَكٌ يحرسه، وما كان ليدخلها عدوّ حتّى تأتوها، ولكنّه مات اليوم منافقٌ عظيم النفاق بالمدينة، فلذلك عصفت الريح. وكان موته للمنافقين غيظا شديدا، وهو زيد بن رفاعه بن التابوت، مات ذلك اليوم"²¹، "إلى أن دُفن عدو الله فسكنت الريح"²².

يكون الرسول محمّد كما سلف أن ذكرنا هو موضوع الرؤية، تُثَقّل أقواله وحوادثه، ولكنّه شخصيّة جالبة لكونٍ من المسرودات ولفضاء من التحقّق السردى، شخصياتٌ تعلق بهذه الشخصيّة، وأحداث تتولّد، وأقول تُروى، واعتقادنا أنّ الرؤية السردية هي المحدّدة لهذا المجال. فالرسول محمد هو مركز التبئير في سيرة من سيره تتمثّل في غزواته، ولكنّ عين الرائي تتفتح لتبئير مجانبية وصحبه ومعارضيه ومُحاربيه، تركّز على من صاحبه ومن عارضه في غزواته، على من قاتل معه وقاتل ضده، وعلى ذلك فإنّ مجال الرؤية الرئيس الذي تتولّد عنه مجالات ثانويّة هو الرسول محمّد الذي يخصّه

الراوي بالرؤية والرواية في حدثٍ مخصوصٍ، ولذلك فإنَّ الكون السردِي في خطاب المغازي مبنيٌّ على هيكلٍ أوليٍّ يتمُّ بعد ذلك تأنيثه، ويتمثَّل في أنَّ الرسول محمَّد هو البؤرة السردِيَّة، وأنَّ الغزوة هي الموضوع، وأتته على حقٍّ وأنَّ من خالفه على ضلالٍ. غير أنَّ السرد لا يقتصر على غزوات الرسول، وإنَّما تتفتح العين الرائيَّة لتشمل صحبَه وأفعالهم، وما حفَّ بهذه الغزوات من شخصيَّات معاديَّة أو قريبة، لتكون المغازي في نهاية المطاف ضبطاً لسيرة الرسول، أو هي جزء من سيرة الرسول، يتحدَّث فيها الواقديُّ عن عدد من المواضيع العالقة بالرسول وغزواته. ويُمكن أن نُفصِّل ذلك في بعض الشواهد التي تُظهر اتِّساع الرؤية وتجاوزها لمسألة الغزوات. وعلى ذلك فإنَّنا نُظهر في هذا الأمر تركيز الرؤية على الغزوات ثمَّ نُظهر ما توسَّع فيه الراوية.

ولكن في العموم فإنَّ التبئير الأساسي للراوي يتوجَّه إلى تتبُّع الغزوات والحروب التي خاضها الرسول، وعلى ذلك، فإنَّ البناء الهيكلي للمغازي قائم على ذكر تلك الغزوات، ومنها يكون التوسُّع في إيراد دوائر حدثيَّة تعلق بتلك الغزوة أو تنتسب إليها بسبب، ودون أن نتوسَّع في الأمر، نقول أنَّ عين الرائي لم تقصِّر أمرها على الغزوة في ذاتها، وإنَّما تفتَّحت لتشمل حوافَّها، وجوانبها، وصفات شخصيَّاتها ومنازلهم. فقد "اهتمَّ الواقديُّ بإبراز المواقع الكبرى والفاصلة في تاريخ الفتوحات الإسلاميَّة، فأفرد لكلِّ منها موضوعاً خاصاً تحت عنوان، يحمل اسمها، مثل (غزوة الخندق)²³، (غزوة خيبر)²⁴، (شأن غزوة الفتح)²⁵، غزوة حنين)²⁶، وفي حديثه عن كلِّ معركة عادة ما يذكر القادة، وعدد الجند، و الخطط الحربية التي وُضعت، والخُدع التي وقعت، وأنواع الأسلحة التي أُستُخدمت، وأسماء البارزين من المُشاركين في الجيش الإسلامي من الصحابة، وتاريخ وقوع المعركة، وأحداث المعركة، والبطولات الفرديَّة للمسلمين، وأسماء الشهداء"²⁷.

يقف الراوي السارد الناظر على الغزوات ذاكرة لها ومفصّلا السرايا، وأبطال الوقائع، فذكر السرايا شكّل موضوعا هامًا جالبا للسرد، وداعيا للعين الرائية، وللأسنة الراوية، والسريّة وفق ما اصطُلح عليه هي الكتيبة من المقاتلين المنفصلة التي خرجت دون حضور الرسول، ولذلك فقد تمّ التفريق بين الغزوة التي يحضرها الرسول ويُشارك فيها والسريّة التي يعقد لواءها لأحد صحابته، ويُمكن أن نضرب على ذلك مثلا، "وكانت سريّة حمزة بن عبد المطلب في رمضان، على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم. قالوا: أوّل لواء عقده رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم بعد أن قدم المدينة لحمزة بن عبد المطلب، بعثه في ثلاثين راكبا شطرين، خمسة عشر من المهاجرين، وخمسة عشر من الأنصار، فكان من المهاجرين: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حذيفة، وعامر بن ربيعة، وعمرو بن سُرّاقة، وزيد بن حارثة، وكَنّاز بن الحصين، وابنه مرثد بن كَنّاز، وأنّسة مولى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم، في رجال. ومن الأنصار، أبيّ بن كعب، وعُمارة بن حزم، وعُباد بن الصامت، وعُبيد بن أوس، وأوس بن خوليّ، وأبو دُجّانة، والمنذر بن عمرو، ورافع بن مالك، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وقُطبة بن عامر بن حديدة، في رجال لم يُسموا لنا". ثمّ يبين الراوي الواقعة -على بساطتها- وأنّهم عرضوا لغير من قرّش ولكن بسبب توسّط مجدي بن عُمارة عادت السريّة دون أن تُقاتل.

يتركّز الحديث أساسا على الغزوات، وكلّ غزوة تتولّد عنها أحداث لا تنتظم بالضرورة، ويُمكن أن نركّز على خبرين دالّين، هما إسلام عمرو بن العاص²⁸، وذكر عائشة رضي الله عنها وأصحاب الإفك²⁹.

أمّا خبر إسلام عمرو بن العاص فهو محفوف بعدد المولّدات القصصيّة، ولعلّ ذلك راجع إلى المنزلة التي تكوّنت للرجل في الذهنيّة الجمعيّة الإسلاميّة، باعتباره أولا

من دُهاة العرب، وباعتباره ثانيًا قد شكّل النواة الأساسية لتأسيس المُلْك الأموي، وباعتباره ثالثًا يُمثّل مرجعية إسلامية هامة في استعادة الأشراف لملُكهم، ولذلك فإنّ قصّة دخوله الإسلام تُرشّح مجالاً للحكاية وتحدّد بثلاثة عناصر تُوجز فيها هيكل الخبر الحدّثي، بسبب طول الخبر وعدم قدرتنا على عرضه:

■ موقف الراوي من أنّ عمرو بن العاص نجا في غزوات عدَدٍ كان مشاركاً فيها مع المُشركين، والأصل أنّ معتقده آنذاك أنّه ضدّ المفسدين في الأرض "قال عمرو بن العاص: كنتُ للإسلام مُجانبا مُعاندا، فحضرت بدرا مع المُشركين فنجوتُ، ثمّ حضرت أحدًا فنجوتُ، ثمّ حضرتُ الخندق فقلت في نفسي: كم أُوْضِعُ؟ واللّهُ ليظهرنّ محمّد على قريش"

■ موقف عمرو بن العاص الثابت من عدم إيمانه "أرى لو أسلمت قريش كلّها لم أسلم".

■ دهاء عمرو بن العاص أوصله إلى حلٍّ إن ساد أمر الرسول محمّد وهو أن يلتحق بالنجاشيّ -وهو صديق- فإن علا أمر محمد توسّط لهم النجاشيّ وهو من آوى الرسول ومكّنه من مكان ينشر منه دعوته، وإن غلبت قريش فقريش تعرف موقف عمرو بن العاص.

■ موقف النجاشيّ عندما ضرب عمرو بن العاص بسبب طلبه قتل رسول محمد، وهو موقف مولّد، مُظهر لإيمان النجاشيّ بالرسالة المحمّدية وهو الحافز الذي سيجعل شخصيّة عمرو بن العاص تتحوّل من مطلق النكران إلى إمكان الإيمان "وغير اللّهُ قلبي عمّا كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحقّ العربُ والعجم وتُخالف أنت؟" ■ إسلام عمرو والتحاقه بالرسول.

وهي قصّة تُؤثّر بطريقة تدعو إلى الاهتمام والدرس، من حيث تنوّع الأصوات فيها، على علمنا بأصل تولّد الخبر وبنيتة الشكلية العامّة، فالراوي هنا يحتلّ ثلاثة منازل كان

لها الدور في تصويع القصة، منزلة الراوية الحامل للمنقول الأخباري -وهو ما أظهرناه في القسم الأول من هذه الدراسة، منزلة الراوي المُبَرَّر لشخصية عمرو بن العاص، ومنزلة الراوي الشخصية الذ يُعهد إليه بالحكاية لبيان مُضمر قوله وظاهره، وخفي فعله وجليّه.

أمّا مجال التوسّع الثاني، فنأخذ منه نموذجا حادثة الإفك، هذا الحدث الذي مثّل إشكالا كبيرا في التراث الإسلامي، ومن ذلك يتوسّع الواقدي في بيانه، ونفس الأمر لن نعرض النصّ بسبب طوله، ولكن يمكن أن نركّز على بعض النقاط الأساسية:

- كان مقام ذكر حادثة الإفك الحديث عن غزوة المُريّسيّ.
- ينتهي الإسناد في هذا الخبر إلى عبد الله بن الزبير
- الاقتراع على نساء الرسول واختيار من تخرج معه في الغزوة "وكان يُحبّ ألاّ أفاقره في سفر ولا حضر" (وجهة نظر الشخصية المفوّضة بالحكاية.
- الأسهم اختارت عائشة وأمّ سلمة.
- الفوز في الغزوة والغنيمة.
- في العودة سقط عقد عائشة، وبقيت تبحث عنه حتّى قال الناس "احتبستنا عائشة"
- "قالت عائشة: فعاتبني (أبو بكر) عتابا شديدا وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلاّ مكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، رأسه على فخذِي، وهو نائم"
- افتقاد الماء، ونزول آيات التيمم.
- انفتاح السرد حول فقدّ عائشة لعقدها من جهة وتأخر الركب من جهة ثانية بسبب ذلك.

إضافةً إلى ذلك فقد تعرّضت العين الرائية إلى ما نزل من القرآن في هذه المغازي، واهتمّت، بما نزل من قرآنٍ وأبانت مناسباته، ومن ذلك ما نزل من آيات في غزوة أحد³⁰، وغزوة بني النضير³¹، تتركّز عين الراوي في هذه الجوانب الحافّة بالغزوة، ويمكن أن نصرب على ذلك مثلاً ما أورده الواقدي في مناسبة نزول سورة "الأنفال"، "يُسئِلُونكَ (هكذا!) عن الأنفال"، قال: لما غنم رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يوم بدر اختلوا. فادّعت كلّ طائفة أنّهم أحقّ به، فنزلت الآية، وهي قوله تبارك وتعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)، يقول: زادتهم يقينا، وفي قوله: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا)، يقول يقينا. وفي قوله: (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ) يقول: لما أمرك ربك أن تخرج إلى بدر هو الحق.³²

فلاحظ في هذا الخبر وأمثاله كُثُر تعرّض الراوية إلى ذكر المناسبة التي حقّت بتنزّل الآيات، ولكنّه لم يقصر الأمر على ذلك بل تعدّاه إلى محاولة تفسير الآية وبيان المقصود منها. والجدير بالذكر في هذا المقام أنّ لدينا صوتا وعينا، وعددا من الرواة الناقلين كما سلف أنّ أظهرنا، يجتمعون في إخراج صوت واحد يمتصّه الواقدي ويحمله عنه راويه.

خلاصة الأمر يُمكن أن نسير مسار محقّق كتاب المغازي وضابط مقدّمته "مارسدن جونسن" الذي انتهى إلى الإقرار بقدرة الواقدي على تقييد عديد الوقائع الهامة فجر الإسلام، وإثبات دقّته في تحديد التواريخ والأماكن وأسماء الأشخاص، لكنّ إضافة إلى هذا الهيكل الذي انشدّت إليه هذه الأخبار، فقد توسّعت عين الرائي المُستعملة، لتلقّي الضوء "على مشاهد كثيرة من الحياة في فجر الإسلام، مثل الزراعة، والأكل، والأصنام، والعبادات في دفن الموتى، وعلى تكوين وتنظيم العير، وبالجملة على جميع مظاهر الحياة في المجتمع الإسلامي في الفترة بين الهجرة وموت الرسول"³³

ولكنّا في الآن ذاته، لا نرى أنّ الواقديّ ينقل الحقائق بقدر ما ينقل رؤية للحقائق، بمعنى أنّه يستعمل رؤى عديدة يُدخلها في قناة رؤيته إيماناً واعتقاداً، وهو الأمر الذي كوّن خطاب المغازي وفق رؤية يكون الرسول محمد هو المحور الدائم، وعليه تُدارُ بقية الشخصيات والأحداث³⁴.

قائمة المصادر والمراجع.

- جعيط هشام: في السيرة النبوية -3- مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام. دار الطليعة. بيروت. لبنان.
- محمد الخبو مسألة المؤلف في أخبار العشق في قديم أدب العرب ضمن كتاب المتكلم في السرد العربي القديم. دار محمد علي للنشر. تونس. كلية الآداب والفنون والإنسانيات. تونس. ط1. 2011.
- محمد بن عمر بن واقد: "كتاب المغازي". تحقيق ماردسن جونس. عالم الكتب. بيروت ط3. 1984. ج1.
- طريف الخالدي: "فكرة التاريخ عند العرب من الكتاب إلى المقدمة"، ترجمة حسني زينه. منشورات الجمل. بيروت. لبنان. ط1. 2015.
- الأسد ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الخامسة 1978.
- سيلفي باترون "الراوي مدخل إلى النظريات السردية". ترجمة أحمد السماوي-محمد الخبو-محمد القاضي-محمد نجيب العمامي. معهد تونس للترجمة. ط1. تونس 2017.
- محمد نجيب العمامي. "الراوي في السرد العربي المعاصر". دار محمد علي الحامي للنشر. صفاقس. تونس. ط1. 2001.



- القاضي محمد: "أفئعة المتكلم في أدب الأخبار"، ضمن كتاب "المتكلم في السرد العربي القديم أعمال ندوة" بإشراف محمد الخبو محمد نجيب العمامي دار محمد علي الحامي-كلية الاداب منوبة تونس. ص 19. ط1-2011.
- جعيط هشام: في السيرة النبويّة 2-تاريخيّة الدعوة المحمديّة في مكّة. دار الطليعة. بيروت. ص 40. ط1. 2007.
- طارق أبو الوفا محمد، "الواقدي ومنهجه في كتابه مغازي الرسول صلّى الله عليه وسلّم"، مكتبة زهران الشرق، القاهرة، مصر، ط1، 2005.
- الهوامش والإحالات.

- ¹ - جعيط هشام: في السيرة النبويّة -3- مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام. دار الطليعة. بيروت. لبنان. ص 7
- ² - محمد الخبو مسألة المؤلف في أخبار العشق في قديم أدب العرب ضمن كتاب المتكلم في السرد العربي القديم. دار محمد علي للنشر. تونس. كلية الآداب والفنون والإنسانيّات. تونس. ط1. 2011.
- ص 44

- ³ - Alain Rabatel: HOMO NARRANS. Pour une analyse énonciative et interactionnelle du récit. Edition Lambert_ Lucas, limoges ; 2008. P 17: "c'est donc celui qui est un trait caractéristique de l'homme racontant. Homo narrans, c'est donc celui qui est capable de se mettre à la place d'un autre, voire de plusieurs autres, antithétique ou complémentaires, capable d'entrer dans les raisons des uns et des autres, de les faire dialoguer. Homo narrans, c'est finalement l'homme aux mille points de vue, sachant empathiser sur ses personnages et sympathiser avec eux, pour le plus grand profit de son auditoire. Ce n'est pas tout: Homo narrans n'est pas une outre pleine de vent capable de faire résonner haut et fort la voix des autres, à l'instar d'un sujet polyphonique qui refuserait de s'impliquer dans ses choix: l'homme aux mille points de vue et par surcroit une voix singulière- et donc le sujet d'un point de vue singulière- sachant se situer par rapport aux autres et à travers son rapport aux autres".
- ⁴ - محمد بن عمر بن واقد: "كتاب المغازي". تحقيق ماردسن جونسن. عالم الكتب. بيروت ط3.
1984. ج1. ص. 29.

- ⁵ - طريف الخالدي: "فكرة التاريخ عند العرب من الكتاب إلى المقمّمة"، ترجمة حسني زينه. منشورات الجمل. بيروت. لبنان. ط1 2015. ص92-93.
- ⁶ - "كتاب المغازي": 2/1.
- ⁷ - "كتاب المغازي": 1/ 363.
- ⁸ - رباتال ص12.
- ⁹ - الأسد ناصر الدين: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الخامسة 1978. ص 189-190.
- ¹⁰ - نستعمل مصطلح المؤلف بالمعنى الذي أجراه محمد القاضي في دراسته للخبر، أي الذات المؤلفة بين متفرّق الأخبار. انظر، القاضي محمد. "الخبر في الأدب العربي: دراسة في السردية العربية". منشورات كلية الآداب منوبة. تونس. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1998. ص182 وما بعدها.
- ¹¹ - "كتاب المغازي"، ج1- ص 199.
- ¹² - "كتاب المغازي": 1 - 221.
- ¹³ - "وقد حدّ راباتال، بداية، وجهة النظر بكونها "التعبير عن إدراك، مساره وأوصافه وتوجيهاته تشترك في الإحالة على ذاتٍ مُدرّكة وتُعبّر بكيفيّة ما عن ذاتيّة هذا الإدراك". انظر، سيلفي باترون "الراوي مدخل إلى النظريّات السردية". ترجمة أحمد السماوي- محمد الخيو- محمد القاضي- محمد نجيب العمامي. معهد تونس للترجمة. ط1. تونس 2017.
- ¹⁴ - محمد نجيب العمامي. "الراوي في السرد العربي المعاصر". دار محمد علي الحامي للنشر. صفاقس. تونس. ط1. 2001. ص 69.
- ¹⁵ - "كتاب المغازي". 224/1.
- ¹⁶ - "كتاب المغازي": 228/1.
- ¹⁷ - يقول ميخائيل باختين إنّ ما يجعل منه (الخطاب غير المباشر الحر) شكلا مخصوصا كون البطل والكاتب يُعبّران معا وكوننا نسمع في حدود التركيب اللساني الواحد نفس رنين نبرات صوتين مختلفين" ص 189 M. bakhtine, Marxisme et philosophie du langage.



- اعتمدنا ترجمة محمد نجيب العمامي كتاب الراوي، هامش 1 ص 68.
- 18- القاضي محمد: "أفئعة المتكلم في أدب الأخبار"، ضمن كتاب "المتكلم في السرد العربي القديم أعمال ندوة" بإشراف محمد الخبو محمد نجيب العمامي دار محمد علي الحامي - كلية الاداب منوبة تونس. ط1-2011. ص 19.
- 19 - (3. 47/23).
- 20- جعيط هشام: في السيرة النبوية2- تاريخية الدعوة المحمدية في مكة. دار الطليعة. بيروت. ط2007. 1. ص 40.
- 21- "كتاب المغازي: 423/2.
- 22- م. ن. 423 /2.
- 23- م. ن. 440 /2.
- 24- م. ن. 633 /2.
- 25- م. ن. 780 /2.
- 26- م. ن. 2-44، 633، 780. 3 /885.
- 27- طارق أبو الوفا محمد، "الواقدي ومنهجه في كتابه مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم"، مكتبة زهران الشرق، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص 161-162.
- 28- "كتاب المغازي": 741/2.
- 29- م. ن. 426/2.
- 30- م. ن: 1 /319.
- 31- م. ن. 1 /380.
- 32- م. ن. 1 /13.
- 33- م. ن. 1 /34.

34- "الواقدي في أواخر القرن الثاني يحتلّ مكانة كبيرة بسبب دقّة أخباره بخصوص مغازي الفترة المدنيّة، ولنا رجعة إلى هذا الجزء الثالث من هذه السيرة. أمّا فيما يخصّ حياة الرسول ذاته وما صاحبها من معلومات، فقد أفاد منها ابن سعد كثيرا في طبقاته. الجزء الأوّل من هذه الطبقات أكثر إغراقا في الخرافات حول بدء الوحي من ابن إسحاق، مع أنّه يحوي موادّ مفيدة جديدة، كوفود سنة 9 هـ، وكلّ ما صاحب حياة الرسول من بشر وممتلكات، حيث الطابع الهاجيوغرافي مسيطر هنا. لكنّ الجزء الثالث المخصّص للتدريين من الصحابة ذو أهميّة بالغة ودقيق جدا، زاخر بالمعلومات من جميع الوجوه." هشام جعيط ص 40.